AL-SABAH
الصباح الإسلامية

No. 4001 | الأحد | 10 ذي القعدة 1442 هـ | 20 يونيو 2021 م | السنة الرابعة عشرة | Alsabah Media | www.alsabahpress.com

مدحهما للنبي سمعت به كل قبائل العرب

العباس بن مرداس وكعب بن زهير.. سادة شعراء الجاهلية

إعداد : هذال المطيري

ما زلنا في سلسلة بلاغة الصحابة ونحن اليوم معكم في صحبة شاعرين مخضرمين من السادة في الجاهلية والمشاهير أتيا النبي لإعلان إسلامهما في ظروف مختلفة الصحابي و الشاعر الأول هو العباس بن مرداس رضي الله عنه، من المخضرمين ممن اشتهروا في بداية عهد الإسلام وقبله وكان من سادات قومه بني سليم.

نسبه

هو العباس بن مرداس ابن أبي عامر بن حارثة بن عبد قيس بن رفاعة بن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور. أسلم قبل فتح مكة ووافى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في تسعمائة من قومه بني سليم على الخيول والقنا والدروع الظاهرة ليحضروا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام فتح مكة.

وكان أبوه مرداس شريكًا ومصافيًا لحرب بن أمية القرشي وقتلتهما جميعًا الجن وخبرهما معروف عند أهل الأخبار، وذكروا أن ثلاثة نفر ذهبوا على وجوههم فهاموا ولم يوجدوا ولم يسمع لهم بأثر: طالب بن أبي طالب وسنان بن أبي حارثة المري ومرداس بن أبي عامر أبو عباس بن مرداس.

وكان «من المؤلفة قلوبهم، وممن حسن إسلامه منهم»، وكان ممن انبعث في خاطرهم روح الإيمان بالدين الإسلامي حينما حرق صنمه ضماراً معلناً إسلامه.

كنيته أبو الهيثم، صحابي وشاعر فارس يعد من المخضرمين، من سادات قومه، أدرك الجاهلية والإسلام، وكان من المؤلفة قلوبهم، ويدعى فارس العُبَيد بالتصغير وهو فرسه، وكان بدوياً قحاً لم يسكن مكة ولا المدينة، وكان يغزو مع النبي ويرجع إلى بلاد قومه، وكان ممن ذم الخمر وحرمها في الجاهلية، ومات في خلافة عمر نحو سنة 18هـ.

من مواقفه مع الرسول

ورد في كتاب «تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل» لـ«أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي»: أخبرنا محمد بن عمر، قال حدثني عكرمة بن فروخ السلمي، عن معاوية بن جاهمة بن العباس بن مرداس قال، قال عباس بن مرداس: لقيته، وهو يسير حين هبط من المشلل، ونحن في آلة الحرب، والحديد ظاهر علينا، والخيل تنازعنا الأعنة، فصففنا لرسول الله، وإلى جنبه أبو بكر، وعمر، فقال رسول الله يا عيينة، هذه بنو سليم قد حضرت، بما ترى من العدة، والعدد، فقال يا رسول الله جاءهم داعيك ولم يأتني، أما والله إن قومي لمعدون مؤدون في الكراع، والسلاح، وإنهم لأحلاس الخيل، ورجال الحرب، ورماة الحدق، فقال عباس بن مرداس أقصر أيها الرجل، فوالله إنك لتعلم أنا أفرس على متون الخيل، وأطعن بالقنا، وأضرب بالمشرفية منك ومن قومك، فقال عيينة كذبت، وخنت، لنحن أولى بما ذكرت منك، قد عرفته لنا العرب قاطبة، فأومى إليهما النبي بيده حتى سكتا.

وقال أخبرنا محمد بن عمر قال حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد قال أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بن مرداس مع من أعطى من المؤلفة قلوبهم فأعطاه أربعة من الإبل فقال العباس:

كانت نهابا تلافيتها
بكري على المهر في الأجرع
وحشّي الجنود لكي يدلجوا
إذا هجع القوم لم أهجع

قال: فرفع أبو بكر أبياته إلى النبي فقال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس: أرأيت قولك أصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينه، فقال أبو بكر بأبي وأمي يا رسول الله ليس هكذا قال، فقال كيف قال، فأنشده أبو بكر كما قال عباس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، سواء، ما يضرك بدأت بالأقرع، أو بعيينة، فقال أبو بكر بأبي أنت ما أنت بشاعر ولا راوية، ولا ينبغي لك، فقال رسول الله، اقطعوا عني لسانه، ففزع منها أناس، وقالوا أمر بعباس يمثل به، فأعطاه مائة من الإبل، ويقال خمسين من الإبل.

قال ابن إسحاق: فقال رسول الله: اذهبوا به، فاقطعوا عني لسانه، فأعطوه حتى رضي فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به رسول الله.

قصه إسلامه

كان دخوله إلى الإسلام بعد رؤية رآها في منامه نهض بعدها حارقاً صنمه ضماراً ومعلناً إسلامه.

ويقال عن هذا الحدث أنه كان لوالد عباس صنماً من الحجر يدعى ضماراً أوصى ولده عند وفاته أن يعبده، فإذا بعباس يوماً يسمع منادياً من جوف ضمار يقول:

قل للقبائل من سليم كلها
أودى ضمار وعاش أهل المسجد
إن الذي ورث النبوة والهدى
بعد ابن مريم من قريش مهتدي
أودى ضمار، وكان يُعبد مرة

قبل الكتاب إلى النبي محمد

ابن مرداس أشجع الناس في شعره، سأل عبد الملك بن مروان ذات مرة جلسائه من أشجع الناس في شعره، فتكلموا في ذلك فقالوا أشجع الناس العباس بن مرداس في قوله:

أَشُدّ عَلى الكَتيبَةِ لا أُبالي
أُحَتَفي كانَ فيها أَم سِواها
وَلي نَفسٌ تَتوقُ إِلى المَعالي
سَتَتلِفُ أَو أُبَلِّغُها مُناها

خروجه إلى النبي وإسلامه

وقال أبو عبيدة: كانت تحت العباس بن مرداس حبيبة بنت الضحاك بن سفيان السلمي أحد بني رعل بن مالك، فخرج عباس حتى انتهى إلى إبله وهو يريد النبي صلى الله عليه وسلم، فبات بها، فلما أصبح دعا براعيه فأوصاه بإبله، وقال له: من سألك عني فحدثه أني لحقت بيثرب، ولا أحسبني إن شاء الله تعالى إلا آتياً محمداً وكائناً معه، فإني أرجو أن نكون برحمة من الله ونور، فإن كان خيرا لم أسبق إليه، وإن كان شرا نصرته لخئولته، على أني قد رأيت الفضل البين وكرامة الدنيا والآخرة في طاعته ومؤازرته، واتباعه ومبايعته، وإيثار أمره على جميع الأمور، فإن مناهج سبيله واضحة، وأعلام ما يجيء به من الحق نيرة، ولا أرى أحداً من العرب ينصب له إلا أعطي عليه الظفر والعلو، وأراني قد ألقيت علي محبة له، وأنا باذل نفسي دون نفسه أريد بذلك رضا إله السماء والأرض، قال: ثم سار نحو النبي صلى الله عليه وسلم ، وانتهى الراعي نحو إبله، فأتى امرأته فأخبرها بالذي كان من أمره ومسيره إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقامت فقوضت بيتها، ولحقت بأهلها، فذلك حيث يقول عباس بن مرداس، حين أحرق ضماراً ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم :

لعمري إني يوم أجعل جاهداً
ضماراً لرب العالمين مشاركا
وتركي رسول الله والأوس حوله
أولئك أنصار له، ما أولئكا؟
كتارك سهل الأرض، والحزن يبتغي
ليسلك في عيب الأمور المسالكا
فآمنت بالله الذي أنا عبده
وخالفت من أمسى يريد الممالكا

قال: فقدم عباس على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة حيث أراد المسير إلى مكة عام الفتح، فواعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قديداً، وقال: القني أنت وقومك بقديد، فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قديداً وهو ذاهب، لقيه عباس في ألف من بني سليم، ففي ذلك يقول عباس بن مرداس:

بلغ عباد الله أن محمداً
رسول الإله راشد أين يمما
دعا قومه واستنصر الله ربه
فأصبح قد وافى الإله وأنعما
أطعناك حتى أسلم الناس كلهم
وحتى صبحنا الخيل أهل يلملما

كعب بن زهير

وشاعرنا الثاني في سلسلة بلاغة الصحابة الشاعر النحرير كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهليّ المشهور، كان لكعب أخ شقيق اسمه بجير شاعر مثله، وأمّهما كبشة بنت عمّار.

لمّا ظهر الاسلام تأخر بجير وكعب عن الدخول فيه، ولكن لمّا زاد انتشاره أسلم بجير، قبيل سنة 7 هـ (628 م) ثم شهد فتح مكّة. أما كعب فإنه بقي على الشرك وأخذ بهجاء أخيه بجير وهجاء رسول الله. فمن ذلك قوله، وقد نصح له أخوه بالدخول في الاسلام:

ألا أبلغا عني بجيرا رسالة
فهل لك فيما قلت، ويحك، هل لكا
سقاك بها المأمون كأسا رويّة
فأنهلك المأمون منها وعلّكا

فأهدر النبي دمه وأرجف الناس بقتله فضاقت عليه الأرض، فعزم في سنة 9 هـ (630 م) على أن يستأمن إلى الرسول فجاء سرّا إلى المدينة واستشفع بأبي بكر ثم سار على أثره حتى دخلا المسجد. فلما صلّيت الصبح أوصله أبو بكر إلى الرسول، فقال كعب للرسول: «يا رسول الله، رجل يبايعك على الاسلام»، وبسط يده وحسر عن وجهه وقال: «بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، أنا كعب بن زهير». فأمّنه رسول الله. فأنشده كعب قصيدة كان قد نظمها في مدحه مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيّم إثرها لم يفد مكبول

وكانت وفاة كعب نحو سنة 26 هـ (645 م).

كان كعب بن زهير شاعرا فحلا مكثرا مجيداً. ومنهم من قرنه بأبيه وجعله مع لبيد والنابغة في طبقة واحدة. وقال خلف الاحمر: «لو لا أبيات لزهير أكبرها الناس، لقلت إنّ كعبا أشعر منه» أما أغراض كعب فيدور معظمها على المدح والهجاء والفخر والحماسة. ولم يكن كعب يرضى كل ما قال من الشعر، ولا غرو فهو على مذهب والده من التنقيح والتحكيك.

من شعره

قصيدة «بانت سعاد»، وفيها يذكر كيف أن الناس والأصدقاء، قد تخلّوا عنه وأنه يرجو العفو من الرسول. وفي مطلع القصيدة غزل تقليدي وكلام على الوعد والخلف به:

وما سعاد غداة البيّن إذ رحلوا
إلا أغنّ غضيض الطرف مكحول
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا
وما مواعيدها الا الاباطيل
إنّ الرسول لنور يستضاء به
مهنّد من سيوف اللّه مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم
ببطن مكّة، لمّا أسلموا: زولوا

يكفيك حب الله عز وجل

إن مما يتمناه كل مؤمن في هذه الدنيا التيقن من حب الله عز وجل، فتجده في كل مواقف حياته يتلمس هذا الحب ويبحث عنه، فإذا وقع في أمر ما تدبّره وحاول الوقوف على خفاياه باحثا دون ملل عن أثر حب الله له، فإذا أصابته مصيبة صبر لله تعالى واستشعر لطف الله عز وجل فيها حيث كان يمكن أن يأتي وقعها أشد مما أتت عليه، وإذا أصابته منحة خير وعطاء شكر الله سبحانه وتعالى خائفاً من أن يكون هذا العطاء استدراجاً منه عز وجل، فقديما قيل: «كل منحة وافقت هواك فهي محنة وكل محنة خالفت هواك فهي منحة». لهذا فإن المؤمن في حال من الترقب والمحاسبة لا تكاد تفارقه في نهاره وليله، ففيما يظن الكافر أن عطاء الله إنما هو دليل محبة وتكريم، يؤمن المسلم ألا علاقة للمنع والعطاء بالحب والبغض لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من يحب» رواه الترمذي. بل إن حب الله لا يُستجلب إلا بمتابعة منهجه الذي ورد ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فإن اتباع هذا المنهج هو الذي يوصل إلى محبته تعالى: «لأن حقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهي موافقته فيما يُحب ويُبغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى ويبغض الكفر والفسوق والعصيان» طب القلوب، ابن تيمية، ص183. والوصول إلى محبة الله عز وجل يستوجب أيضاً أن يترافق حب العبد لله مع حبه لرسوله عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» آل عمران: 31.

مراتب حب الله عز وجل

إن حب الله لعباده هو على مراتب ودرجات متصلة بحب العبد لله، فكلما زاد حب العبد لله ورسوله زاد حب الله عز وجل لهذا العبد، وأول من يستحق هذا الحب هم أنبياء الله سبحانه وتعالى الذين جعلهم الله سبحانه وتعالى أخلاّءه فقال عز وجل: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» النساء، 125.

وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً» أخرجه الحاكم. والخُلّة «اخصّ من مطلق المحبة بحيث هي من كمالها، وتخلّلها الحب حتى يكون المحبوب بها محبوباً لذاته لا شيء آخر». طب القلوب، ص229.

ويأتي بعد ذلك حب المؤمنين وهم اولياء الله المتقين.

ويتفاوت المؤمنون في هذا الحب بتفاوت أعمالهم التي تقربهم إلى الله عز وجل، قال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرّب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» رواه البخاري.

وهذا التقرب يدرك العبد كيفيته بالاطلاع على أوامر الله ونواهيه، فينفذ الأمر ويتجنب النهي، ويترك المكروه، كما يفعل المحبوب، جاء في الحديث القدسي «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه». وقال عز وجل في تتمة هذا الحديث القدسي «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» رواه البخاري .

وقد عدّد القرآن الكريم الخصال التي تقرب المؤمنين إلى الله وتجعلهم يفوزون بحبه، فورد في كتابه الكريم أنه سبحانه وتعالى يحب التوّابين ويحب المتطهّرين، ويحب المتقين، ويحب الصابرين ويحب المتوكلين، ويحب المقسطين، ويحب المحسنين.

فعلى العبد أن ينمّي علاقته بربه وان يحاول جاهداً أن يتصف بالصفات التي تقربه منه عز وجل وتقوّي في نفسه محبته، فإذا قويت هذه المحبة أصبح ممن يستحقون حب الله ورضوانه.

التماس حب الله عز وجل

يستطيع المؤمن الذي اتخذ من القرآن والسنة منهجاً لحياته أن يتلمس أثر حب الله ورضاه في نفسه، وذلك بطرق مختلفة اهمها رضاه عن الله عز وجل، فمن كان راضياً عن الله عز وجل كان ذلك من أبلغ الدلائل على رضا الله عنه. وقد أكّد ابن قيم الجوزية ان العبد يستطيع أن يتلمس أثر حب الله في قلبه في مواطن عديدة منها:

«الموطن الأول: عند أخذ المضجع حيث لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به.

الموطن الثاني: عند انتباهه من النوم، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه.

الموطن الثالث: عند دخوله في الصلاة، فإنها محك الأحوال وميزان الإيمان ... فلا شيء أهم عند المؤمن من الصلاة، كأنه في سجن وغمّ حتى تحضر الصلاة، فتجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لبلال: «يا بلال أرحنا بالصلاة».

الموطن الرابع: عند الشدائد والأهوال، فإن القلب في هذا الموطن لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه ولا يهرب إلا إلى محبوبه الأعظم عنده».

وتزداد الحاجة إلى الثبات في هذا الموطن الأخير لكون المؤمن أشد عرضة للبلاء من غيره من البشر، خاصة إذا أراد أن يصل إلى الحب المتبادل بينه وبين الله عز وجل.

فوائد حب الله عز وجل

إن أول فائدة تعود على المؤمن الذي يحبه الله عز وجل هي أن يجعله من عباده المخلصين، فيصرف بذلك عنه السوء والفحشاء، قال تعالى: «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين» يوسف: 24.

وهذا الإخلاص يحصل للمقربين الذين جاهدوا في الله حق جهاده، أما المؤمن فينال من هذا الإخلاص على قدر قربه من الله، إلا ان علامات حب الله عز وجل ان يجعل الله له المحبة في أهل الأرض، جاء في صحيح مسلم تعليقاً على قوله تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً» مريم، 96. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني احببت فلاناً فأحبه فينادي في السماء ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض».

ومن فوائد حب الله عز وجل التي يجنبها المؤمن في الآخرة غفران الذنوب، لقوله تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم» (آل عمران: 31).

ومنها الفوز والنجاة من عذاب يوم القيامة، يروى انه سئل بعض العلماء أين تجد في القرآن ان الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فقال في قوله تعالى: «وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ» المائدة، 18. لهذا أدرك علماء الإسلام اهمية حب الله عز وجل فكانوا يسألونه تعالى هذا الحب في دعائهم، ومن أدعيتهم في هذا المجال: «اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك، اللهم ما رزقتني مما احب فأجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فأجعله فراغاً لي فيما تحب، اللهم اجعل حبك أحبّ إليّ من أهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ، اللهم حببني إلى ملائكتك وانبيائك ورسلك وعبادك الصالحين، اللهم اجعلني أحبك بقلبي كله وأرضيك بجهدي كله، اللهم اجعل حبي كله لك، وسعيي كله من مرضاتك». فليس بعد هذا الدعاء إلا التأكيد على أن من لم يكفه حب الله فلا شيء يكفيه، ومن لم يستغن بالله فلا شيء يغنيه.